

الصراحة

للأستاذ عباس أبو شوشه

إن من أحب أخلاق الناس إلى أن يكون المرء صريحا وأخفا يعرف باطنه من ظاهره ، وأن تكون صفحته مرآة صافية لنفسه وأسايره وعنوانا وأخفا لمريرته ، وأن يكون شجاعا بين الولاء شامس العداء ، فتعرفه صديقا يرتجى أو عدوا يتقى ، ولا تتخذك منه ابتسامة براقية هي سنا النار المتأججة في الضلوع ، أو كدسة معسولة يختفى في شهدائها نافع ، أو بسطة باع وراءها صدر ضيق وقلب مريض .

وبودي لو ساد هذا الخلق الكريم في الناس وربا غرسه في رباهم ، فقد طالما كانت الصراحة عاملا نافعا في تصافي النفوس وتوثيق عرى القلوب ، وطالما حلت الصراحة مشكلات وأجندت نارا لولاها لاحتدم سعيها ولتفاقم خطرها ، فكم من أخ تبدر منه لأخيه بادرة غير مقصودة أو تكون صادرة عن حسن نية وصفاء طوية ولأمر ما تقول على غير وجهها فيسر لها هذا في نفسه ويدعها تحز في قلبه ويحمله ذلك على سوء الظن بكل ما يصدر عن صاحبه وهو برئ ، ثم لا يلبث أن يتقلب الإسرار ضغنا ، ثم يصير الضغن بغضا ، ثم يشتد البغض فيصير عداوة تتأصل جذورها ويتعذر استئصالها ، ولو حلت الصراحة محل الإسرار ، واستوضح الأخ أخاه سر بادرت ، واستكشفت دخيلة نفسه — فإن كان مخطئا صوب خطاه — لحما العتاب أثره وظل الوداد بينهما صفوا .

وكم من زوجين يلحظ أحدهما على الآخر عارضا من حزن أو طارئا من فتور قد يكون مصدره وعكة من سقم أو ضيقا يحدث من أحداث الحياة لا يمت بصلة قريبة أو بعيدة لحياتهما الزوجية فيخاله نفرة من جانب شريكه ، وقد يحمله الإدلال أو تاخذه العزة فيقابل الفتور بفتور ، ويقارض بالانقباض انقباضا ، فتتباعد مسافة الخلف وتوسع هوة الشقاق ، وتلتهب الجمار المتوارية تحت الرماد ثم لا تلبث أن تعصف بها عاصفة شر تثير غبارها وتطير شرارها فتصبح جنة البيت حجيا يصلى بجمرد أناس ويكتوى بناره أطفال لم يكونوا من جناتها ، ولو ترقى كل بصاحبه ونظر إلى المسألة بغير المنظار الأسود الذي نظره ، وحاول أن يسائل في رفق وفي أناة عن سر الألم حتى يستشفه ويكشف عن أس العلة فيأسوها تفاديا لكرثة قد تكون نتيجتها وبالا ولا نصيب الذين ظلموا خاصة .

حكم من رئيس يحنو على مرءوس فيكرمه و يقربه لكفاية خاصة وينزله من نفسه منزلة الولد من الوالد أو الأخ من أخيه ، فتوغر الغيرة صدور الحساد والمنافسين فلا يقرب لجنوبيهم مضجع حتى يجدوا نفرة ينفذوا منها إلى ذئب القلبين الضافين فيفرقوا بينهما ، وقد يصاب ذلك الابن البريء ببطشة تطيح به عن جهل بالحقيقة ، ولو تدخلت الصراحة بادئ ذي بدء لتكشفت صحاب الشك ولبدأت العاصفة وقطعت أسنة المشائين .

وما يرى له أن نرى في هذا الزمان طائفة من صيادى المنافع قد احترقوا المداينة وحذقوا المداورة ، وأصرع في نفوسهم الخداع واستغلظ في ربوعهم النفاق ، فهم في ظاهريهم أولياء أوفياء لكل صاحب سلطان يخلقون له المحامد ويتغنون له بالمدايح ويطرون كل ما يسد عنه حسنا كان أو قبيحا ، على حين أنهم يلتقون على ما في صدورهم من جمار الحسد ندى من المرء يجد من إذ كاثما إلى حين ، ويتربصون به الدوائر ، حتى إذا دالت أيامه والدنيا دول ، عادت تلك الجمرات وهي أشد وقدا وأذكى لبا ، وراحوا يسطون فيه ألسنتهم بكل نابية ويتغنون له كل دهية داهية ، ويقبلون محاسنه سيئات ومحامده دنات ، ومن العجب العجائب أن يجد أمثال هؤلاء لبصاعتهم سوقا نافقة في ساحات بعض ذوى السلطان من ذوى اللب والعقل الذين لا تعوزهم الفطنة ولا تنقصهم التجاريب . وفي مثل هؤلاء جاء في التزليل الحكيم على رسول الله الكريم (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وبكل وصفهم قوله تعالى :

(إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم تكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنمكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) .

وعندى أن أمثال هؤلاء لو أوصدت دونهم الأبواب وصمت عنهم الأسماع وغضت عنهم الأبصار ، ووجدوا عصا التأديب حاضرة ، لقمعوا في جلودهم ووقفوا عند خطيئهم واستقاموا على الطريقة صاغرين .

وكم يكون أصلح للدولة وأجدى على الأمة أن نقنذى بشيء من صراحة السلف الصالحين الحاكمين والمحكومين ، تكشف عن نواحي النقص وتمهد الطريق للإصلاح ، وبجسبي إيراد ما روى عن عبد الرحمن بن زياد الإفريقي أنه قدم على أبي جعفر المنصور فسأله أبو جعفر " يا عبد الرحمن كيف ما مررت به من أعمالنا إلى أن وصلت إلينا ؟ " فقال " أعمالا

فاسدة سيئة، وظلما فاشيا، وظننت أن ذلك لبعد البلاد عنك فجعلت كل ما دتوت منك أرى الأمر أعظم“ فأطرق المنصور ثم قال ”كيف لي بالرجل يا عبد الرحمن؟“ فقال ”أليس عمر بن عبد العزيز يقول : السلطان بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها ، فإن كان برا أتوه ببرهم ، وإن كان فاجرا أتوه بفجورهم؟“ فقال المنصور : صدقت .

وما روى عن عوف بن مالك رضي الله عنه أن جماعة دخلوا على أمير المؤمنين سيدنا عمر ابن الخطاب فقالوا: ”والله ما رأينا رجلا أوفى بالقسط ولا أقول للحق ولا أشد على المنافقين منك يا أمير المؤمنين ، وأنت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم“ وكان عوف حاضرا فقال ”كذبتم والله! لقد رأينا من هو خير منه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم“ فقال عمر ”من هو يا عوف؟“ فقال ”أبو بكر“ فقال عمر ”صدق عوف وكذبتم . لقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك وأنا أخل من بغير أهلي“ .

ألا فلتكن فضيلة الصراحة من أخلاقنا، ولتكن لنا فسير العالمين الصالحين قدوة حسنة عسى أن يهدينا الله صراطا مستقيما .

عباس أبو شوشه
بوزارة الشؤون الاجتماعية

”يجابه ، لا يخفى السنان ، فلا ترى

له غضبا يأتى العدو ملثما !“